كتاب الرد على الكفرة

الباب الأول: في حقيقة التعصب.

الباب الثاني: في حقيقة الكفر.

الباب الثالث: في الرد على الفلاسفة.

الباب الرابع: في الرد على الدهرية.

الباب الخامس: في الرد على الملاحدة – لعنهم الله.

الباب السادس: في الرد على الطبائعيين.

الباب السابع: في الرد على المنجمين.

الباب الثامن: في الرد على اليهود – لعنهم الله.

الباب التاسع: في الرد على عبدة الأوثان وعبدة البقر والكواكب.

الباب العاشر: في الرد على إخوانهم المجوس.

الباب الحادي عشر: في الرد على البراهمة.

الباب الثاني عشر: في الرد على النصارى – لعنهم الله.

الباب الثالث عشر: في جوابات الروم.

الباب الرابع عشر: في الرد على الإباحية.

الباب الأول

في حقيقة التعصب

واشتقاقه من العصيب والعصب، وهو الشدة، يوم عصيب، ويقال للغزال: عصاب[١]، فكل من كان شديدا غيورا في دينه ومذهبه فمتعصب ذابّ عن الدين حافظ للإسلام والاعتقاد.

فصل: واعلم أن التعصب قاعدة الإسلام وقانون الإيمان وأساس الشريعة وشعار الموحدين وعلامة المؤمنين[٢]؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ولو كره الكافرون، ولا يبلغ المرء حقيقة الإيمان حتى يكون على دينه أغير منه على محارمه من بناته وأخواته، والمداهنة من علامة المنافقين، ومن لا غيرة له على الدين والمذهب فلا دين له، ومن لا وفاء له فلا دين له، والتغافل عن البدعة ينبئ عن قلة الدين، وفي الخبر: «الدّيّوث لا يدخل الجنة». فيا معاشر المسلمين تعجبوا من هذا الخبر، قال: «من لا يغار على أهله فلا يدخل الجنة»، والدين والمذهب خير من بُضْعِ امرأة، فمن لا يغار على الدين كيف يدخل الجنة؟ وكفى باللّه نكالة، فلا خلاف بين المسلمين أن المصلي لو رأى أحدا يقع في الحريق والبئر العميق فإنه يجب عليه قطع الصلاة وتخليص الرجل، كذلك البدعة تجر إلى النار، فمن رأى واحدا يتكلم في البدعة أو يجالس مبتدعا يجب عليه أن يمنعه أوّلا، وينصحه ثانيا، ويزجره عن البدع ثالثا، وعند هذا يلزم قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» قيل: يا رسول اللّه، هذا المظلوم ننصره حتى يصل إلى حقه فكيف ننصر الظالم؟ قال: «تمنعه عن الظلم فذلك نصرته» وهو الأمر العظيم.

---

(١) ويقال: استصعبت الناقة: إذا اشتدت في سيرها.

(٢) أي: التعصب لله تعالى ولرسول ﷺ، والتعصب للحق في الحق، والتعصب في توحيد الحق، والتعصب في رفض الباطل بالاستناد إلى جناب المولى الحق.

والرضا بالكفر كفر، والرضا بالفسق فسق[١]، ومن اعترضت له شبهة يجب على العلماء حلها وإزاحتها، فإن تواكلوا حرجوا عن آخرهم، وأيضا من لا يغضب في موضعه فقد رد حكم اللّه في خلق الغضب؛ فمن استغضب ولم يغضب فهو حمار، والأمر بالمعروف ركن الشريعة، ولو عمر رجل سبعين سنة وتصدق بألف دينار ذهبا[٢] ثم تكلم بالبدعة فعمله هباء منثور، ولا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب المؤمن في اللّه، ويبغض المبتدع في اللّه، قال النبي ﷺ: «الحب في اللّه والبغض في اللّه أوثق عُرَى الإيمان» فإن قلت: أسرار العباد بيد اللّه، والخلق كلهم عباد اللّه خلق قوما للجنة وقوما للنار، يسر قوما للطاعة، وقوما للمعصية، فدع عباد اللّه إلى اللّه؛ فكل شاة برجلها ستناط، ولا خصومة في دين محمد، فمن أنت يا فضولي؟ أنت وصي آدم أم أنت محتسب العالمين؟ فأقول[٣]: هذا سؤال يقرع باب الإباحة، ويخطب الزندقة، ويسد باب الأمر والنهي، وهو إعراض عن اللّه تعالى ورسوله؛ لأن اللّه أمر ونهى ووعد وأوعد وأحب وأبغض، وقال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وهذا الرسول ينبئ عن حكم الشرع والذي يقوله الأشعري: أمر اللّه، وأمر اللّه واجب، يجب على العبد أن يحفظ أمر اللّه، ولا ينظر إلى حكمة اللّه، والذي قال: إن محمدا كان حرا لا خصومة في دينه فقد كذب؛ لأنه كان حر النفس، لم يكن حرا عن الخصومة، «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد» وقد قتل خلائق جمة، وقتل في يوم واحد من بني قريظة والنضير أربعمائة رجل، ويدعى في التوراة نبي القتال والملحمة، وهو يقول: «لو سرقت فاطمة بنت محمد -

---

(١) أي: وقع في الحرج بمعني الإثم واستحقاق العقوبة من الله تعالى.

(٢) وهو ما يعادل اثنين مليونا ونصف المليون من الجنيهات اليوم؛ إذ الدينار يساوي (٤,٢٥) دينار من الذهب.

(٣) وهي نفس مقولة بعض الناس اليوم: «دع الملك للمالك»، وهي صحيحة لولا أنه يراد به عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الناس سُدَى.

رضي اللّه عنها - لقطعت يدها» - أعاذها اللّه من ذلك[١]. ولو أن ظالما قصد وليا لقتله فهرب يجب على من رآه أن يكذب ولا يصدق، ولو ترك الأكل حتى كاد أن يهلك يجب عليه الأكل، ولو رأى أعمى يقع في البئر يجب على المصلي الذي لا يتكلم أن ينبهه، والسكوت في هذا الموضع حرام، وأيضا إن من قال: إن الخصومة بين المسلمين حرام؛ فيلزم أن لا يعترض لمن سلب ثوبه وصفع قفاه ووطئ عياله؛ لأن الخصومة حرام. ولو قال: كذا يجب؛ فنقول: هذه زندقة كبرى، ومن فعل هذا فهو إباحي كافر، وإن قال لا يجوز السكوت عليه؛ قلنا: كذلك أوامر اللّه لا يجوز السكوت عليها.

الباب الثاني

في حقيقة الكفر

فلما كان حقيقة الإيمان التصديق باللّه وبرسوله في مخبراته، كان الكفر الذي هو ضده تكذيبا للّه ولرسوله، وقيل: الكفر هو الجهل باللّه وبصفاته، فالكافرون، وإن قالوا: نحن نعرف اللّه لقول اللّه تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقد كذبوا اللّه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] وقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ).

فصل: وأصناف الكفرة عشرون صنفا: رأسهم ورئيسهم الدهريون القائلون بأن الآدمي كالنبات والحشيش، وهم مفتونون في ذلك فإن الحشيش والنبات لابد له من منبت، ولو جاز نبت من غير منبت لجاز بذر من غير باذر، وبناء من غير بانٍ،

---

(١) وهي جملة خبرية لا دعائية أي: وقد أعاذها الله من ذلك.

وكتاب من غير كاتب، والثاني: الفلاسفة أصحاب الهَيُولَى[١] والعناصر، والسوفسطائية[٢]، والطبائعية[٣]، والأزلية، والمنجمية، والملحدة الذين رأوا الأفعال من النجوم، والثنوية حين رأوا الفعل من النور والظلمة، والمجوس الذين رأوا الخير والشر من يزدان وأهرمن، والإباحية أباحوا ما أرادوا، وعبدة الأوثان، والبراهمة، والصابئة، والحلولية، والتناسخية[٤]، واليهودية، والسامرية. والسابع عشر: النصارى وعبدة الأوثان، وعبدة الرؤوس. والبقر. والمتحيرة الذين لا دين لهم. والمزدكية[٥]، والباطنية شر من الجميع، والإباحية[٦]، فهؤلاء الأصناف من الكفار - لعنهم الله.

فصل في الكلمات تكون كفرًا: لو قال: لا أخاف الله، ولا أستحي من الله يصير كافرا، ولو قال: إن أمرني الله به لم أفعله يكفر، أو قال: أنا على رضاك أحرص مني على رضا الله، أو قال: لا أدري أن الله خلق هذا، أو قال: هذه بينك وبين الله، أو قال: لو كان فلان رسول الله لم أطعه، أو قال: لو جئت بالدرهم الواضح إلى رضوان لفتح لك باب الجنة، أو قال: إن الصلاة لا توافقني، أو قال: داري وبيتي مثل السماء والطارق، أو قيل له: هذا حكم الله، فيقول: لا أعرف

---

(١) الهَيُولَى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال. محل للصورتين الجسمية والنوعية. التعريفات للإمام الجرجاني - ص ٢٣٠.

(٢) السفسطة: قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته، كقولنا: الجوهر موجود في الذهن، وكل موجود في الذهن قائم بالذهن عَرَضٌ؛ لينتج أن الجوهر عرض. المصدر السابق - ١٠٥.

(٣) الطبائعية: القائلون بطبائع الأشياء وأنها لا تتخلف عن طبائعها وأمزجتها، وقائل هذا كافر لأن الله هو القادر على أن لا يجعل النار محرقة ويجعلها سلامًا وتتخلف بذلك عن طبيعتها. ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

(٤) وهم القائلون بتناسخ الأرواح في غير أجسادها بعد موتها.

(٥) المزدكية: ممن غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة. الملل والنحل للشهرستاني، ج١، ص ١٢٧.

(٦) يعني وشر من الإباحية مع هول ما هم عليه.

حكم اللّه، أو قال: لامرأة: شدي الزنار وتخلصي، أو قال: كافر اعرض عليّ الإسلام، فيقول: ارجع إلى وقت كذا[1]، أو ينتقص نبيا من الأنبياء، أو قيل له: إن النبي كان يحب كذا، فيقول: لا، أو يقول: أنا أعلم الغيب، أو يقول الرجل لامرأته: أحل اللّه أربع نسوة، فتقول: أنا لا أرضى بهذا، أو هذا عندي ظلم.

مثل هذه الكلمات إذا تلفظ بها قصد بها الكفر أو لم يقصد يكون كفرا، ولو قال: إن كنت رسولا فانْتُزِعَ الحقُ منك، يكفر، ولو قال: يجوز وطء الحائض يكفر، ولو أن نصرانيا أسلم ثم مات أبوه، فيقول ليتني لم أسلم حتى أرث أبي يكفر، ولو قال: شعيرة رسول اللّه على وجه التصغير يكفر، ولو قال: ليت الخمر لم تكن حراما يكفر، ولو قال: ليت الزنا والقتل والغصب كان مباحا يكفر، ولو قال: عرض لي أمر أردت أن أكفر يكفر، ولو قال: المجوسية خير من هذا الأمر والدين والمقالة يصير كافرا، ولو قال: سآخذ حقي منك في القيامة، فقال: كيف تعرفني في ذلك الزحام والزحمة يكون كافرا، ولو قيل لرجل في الغضب: أما تخاف اللّه، فقال: لا، يكفر، ولو علّم امرأة حتى ترتد وتفسخ النكاح بينهما كفر. ولو قيل لرجل: لماذا لا تدور حول الحلال؟ فقال: إذا وجدت الحرام: فلا أدور حول الحلال يكفر.

حكاية: قيل للمأمون: سئل عالم عن قتل رجل حائك، ماذا يلزمه؟ فقال: يلزمه طغار زيت، فدعا المأمون بالعالم، فقال: ويحك ما الذي أفتيت به؟ قال: كنت أمزح، قال: المَزح بأحكام اللّه في دين اللّه؛ فأمر حتى ضرب بالسياط، ومات تحت السياط، فلا يجوز التمزح والتهزل بأحكام اللّه في دين اللّه، فإن موقعه عظيم.

---

(١) لأن رضاءه ببقائه على الكفر حتى يعود إليه في وقت كذا هو كفر، فالرضا بالكفر كفر.

الباب الثالث

في الرد على الفلاسفة

وهم قوم من اليونانيين تحذلقوا في المعقولات حتى وقعوا في وادي الحيرة والخَبَاط، وتحيروا في الإلهيات، وبنوا مقالاتهم على التشهي المحض والـدعاوي الصرف، ويزعمون أنهم أكيس خلق اللّه، وسياق مذهبهم يدل على أنهـم أجهـل خلق اللّه وأحمق الناس، وأساس الإلحاد والزندقة مبني على مذهبهم، والكفر كله شعبة من شعبهم، وكانوا يترهبون لقطع النسل، ورئيسهم أفلاطون الملحد - لعنه اللّه - قال لموسى بن عمران رسول اللّه وكليمه: كل شيء تقوله أصدقك فيه إلا قولك «كلّمني» علة العلل، انظر إلى اعتقاد هذا الخبيث كان يكذب رسـول اللّـه، ويعتقد أن اللّه تعالى لا كلام له البتة، تسميته توجب بنفسها من غيـر اختيـار، ويعتقد أن العالم قديم، وإخوانه كأرسطاطاليس وسقراط وبقراط وجالينوس كلهـم ملاحدة العصر، وزنادقة الدهر يقينا، فإن هذا تعرفه العلماء، دون الأمراء، ثم إن اللّه سبحانه علم خبث سرائرهم فأرسل اللّه عليهم سـيلا فغـرقهم. وعلـومهم المشئومة عَرَّبتها أقوام في عهد المأمون الخليفة بإذنه ووصـيته، ثـم اعتقـاد الفلاسفة أن الآلهة ثلاثة: المبدأ والعقل والنفس، وقضوا بكون العقـل والـنفس أزليين وينفون الصفات، ولا يقولون إن اللّه حيّ. عالم قادر مريد سـميع مـتكلم البتة، وزعموا أن الحركات أزلية سرمدية إلى غير ذلك. فهم مشركون ملحدون - لعنهم اللّه.

وزعموا أن أصل هذا العالم - أعني عالم الكون والفساد- الهيولى بزعمهم جوهر الشيء، كالقطن أصل الثوب، وعندهم الهيولى الذي هو أصل العالم أزلـي قديم لا أول له، كان في الأول جزءا بسيطا لا عرض فيه، ولا تركيب، ولا اجتماع، ولا افتراق. ثم دخلها التركيب العام. فالدليل على بطلان قـولهم ومـذهبهم أنـه

يستحيل في العقول وجوب الفلك المتحرك شمسها وقمرها من غير صانع كما يستحيل حدوث كتابة إلا من كاتب، وبناء إلا من بانٍ، فالفَلَك ليس بأقل من الفُلْك ولا يتصوّر انتظام ألواحها من غير نظام نجار حاذق، دليل نفس الإنسان ونفس كل حيوان، في الابتداء كانت قطرة ماء، ثم علقة ثم مضغة، ثم لحما ودما واحدا يحول نفسه من حال إلى حال، فلا بد من محول حكيم. ثم نقول: يا أصحاب الهيولى كيف تركيب العالم من الهيولى؟ أبصانع صنعه أم بغير صانع؟ فإن كان بصانعٍ فهو ما قلنا، وإن كان بغير صانع فيستحيل في العقل أن تركيب السماوات والأرض مزينة بالمصابيح والشمس والقمر من غير تركيب صانع حكيم.

دليل آخر: الهيولى شيء واحد وحقيقة واحدة لا يوجب أشياء كثيرة، هذا غير معقول، فالذات الواحدة لا توجب اجتماعا وافتراقا وحركة وسكونا بذاتها، فلو أن سائلا سأل الفلاسفة عن العلة الأولى، وما هي؟ وسبب الامتزاج ما يكون؟ وما هو؟ لا يكون لهم جواب البتة، وإن قالوا إنها كانت أجزاء، إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة، فإن كانت مجتمعة فاجتماعها لا يخلو إما أن يكون لذاتها أو لمعنى، فإن كان لذات لا يجوز تفرقها؛ لأن اجتماعها إذا كان لذات فتفرقها يوجب تلاشيها، فلا يجوز تفرقها بحال، ولو كان اجتماعها لمعنى فقد سبق المعنى عليها فبطل أن يكون قديما لأن القديم ما لا يسبقه شيء.

دليل آخر: أي العرضين سبق إلى الهيولى الاجتماع أو الافتراق؟ فإن كان الاجتماع فلا بد للاجتماع من افتراق، وإن كان الافتراق فلا بد من اجتماع، وعندكم الهيولى خالٍ عن أنواع الأعراض.

دليل آخر: لا بد من مخصص يخصصه بالاجتماع دون الافتراق أو بالافتراق دون الاجتماع[1].

---

(١) والتخصيص بغير مخصص محال؛ فبطل كونه مخصصًا بالاجتماع أو الافتراق إلا أن يكون بصنع صانعٍ هو الله تعالى إذا أثبتنا وجود الهيولى.

إلزام آخر: ما الموجب على الوقوف لتسعة من العقول، وتسعة من النفوس وتسعة من الأفلاك وأربعة من العناصر؟ وهلاً زاد إلى ما لا يتنـــاهى؟ وهـــلا زاد بعدد معلوم ونقص؟ فلم يقف في حد معلوم؟ هذا تحكم محض لا جواب لهم أبـــدا، ثم ما الموجب لمقدر النجوم الشمس والقمر ما قدرها المعلومة به حتى صار منها ما هو أكبر، ومنها ما هو أصغر، وما الموجب لتعيين القطبين بالموضع المعلوم؟ ولا جواب لهم عن هذا قط؛ فبطل مذهبهم؛ والسلام.

الباب الرابع

في الرد على الدهرية

وهم شرذمة قليلة، قالوا: العالم في الأزل كان أجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة، فاصطكت اتفاقا، فحصل عنها العالم بشكله الـــذي تـــراه، ودارت الأدوار وكرت الأكوار. ولست أرى أن هؤلاء ينكرون الصانع لكن يعتقدون في حدوث العالم ما ذكرت، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللّه، ويقولون: الآدمي يحدث من نطفة، والنطفة من الآدمي، والبيضة من الدجاج، والدجاج من البيضة.

الجواب الأول: بضرورة العقل نعلم أن العالم مصنوع، ولابد للمـــصنوع مـــن الصانع، أفي اللّه شك فاطر السماوات والأرض، واعلم قطعا أن الدهري متى يمرض أو يفتقر أو يضطرب به البحر فإنه يلجأ إلى اللّه تعالى؛ يا رب فرّج وافعل بي كـــذا، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، بل ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك.

الجواب الثاني: ليس الآدمي نطفة ولا النطفة من الآدمي، بل آثـــار قـــدرة القديم، فقد تكون نطفة ولا يحدث آدمي، والدجاجة والبيض مـــن آثـــار القـــدرة الباهرة، فتنبهوا - خذلهم اللّه - لقولهم الآدمي كالنبت قلنا: يا حميـــر، الآدمـــي شخص حي عالم، كيف يكون كالنبت النامي؟ ثم النبات لا بد له من منبت.

واعلم أن التعطيل من وجوه: منها تعطيل الصنع عن الصانع، ومنها تعطيل الصانع عن الصنع، ومنها تعطيل الباري عن الصفات الذاتية، ومنها تعطيل الباري عن الصفات المعنوية، ومنها تعطيل ظواهر الكتاب والسنة. أما تعطيل العالم عن الصانع فلم يذهب إليه سوى الملاحدة - لعنهم اللّه - وأما تعطيل سلامة الاعتقاد في هذه المجازات والمعارضات والأودية المظلمة والبحار المغرقة، فلم يخلص سوى أهل السنة والجماعة، والصدر الأجل سيد الوزراء ورأسهم ورئيسهم في هذا الاعتقاد، والحمد للّه حق حمده.

هنيئا وزاد اللّه فيه زيادة وذلك مجد يملأ العين والصدرا[1]

الباب الخامس

في الرد على الملاحدة - لعنهم اللّه

الملاحدة شر خليقة اللّه تعالى، وأخبث عباد اللّه، وكفرهم أعظم من كفر فرعون وهامان وثمود، وكفر جميع الكفار يتلاشى في جنب كفرهم، وإن كان الكفر كله ملة واحدة، ولكن أعرفك خبرهم، وأصل مذهبهم نشأ من ميمون بن ديمان الثنوي المقيم بكنيسة فارس في سنة ثلاثمائة وعشرين، وتقوية مذهبهم من جهة تاج الملك الملحد المسيحي - لعنه اللّه- وأول بلدة ظهرت فيها هذه المقالة أهواز، وقيل: أصفهان، وعود هذا المذهب وعاقبته وخاتمته التعطيل؛ فأوله رفض، وآخره تعطيل محض، ولا ملك لهم البتة ولا سلطنة ولا مقالة البتة سوى التلبيس، ومقصدهم معادلة الإسلام وتشويش الشريعة.

وافترقت المجوس على سبعمائة فرقة، والباطنية شيء منهم، والكلب والخنزير يسكنان بلاد الإسلام، والباطني لا يقيم بين المسلمين لخبث عقائدهم،

---

(١) البيت من بحر الطويل.

وداعيتهم في العراق الحسن بن أحمد الصباح الرازي الزنديق، كان ساعيا كاتبا بالري وتعلم النجوم والفلسفة بمصر، وسمى نفسه صباحا، يعني: أنه صبح طلع بين الدعاة، كما أن أبا عليّ بن الحسن كان من قرية ببخارى يقال لها: سينا، فسمى نفسه ابن سيناء وهو الضياء، وصعد هذا الزنديق قلعة الموت في سنة سبعين وأربعمائة، أخذ الدعوة من مصر بمعونة تاج الملك الزنديق، وأعطاه مالاً اشترى به قلعة الموت - خربها الله تعالى - وكان يدعي التشيع ونصرة أهل البيت، ويعدهم الخروج والاستيلاء، فجلس يوما على القلعة وقسم جميع البلاد على قومه يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وكثر هَرَجُه وشرّه وفتكه بالملوك والسلاطين والعلماء والكبراء، ولم يحصل على ما أضمره من الخروج والاستيلاء إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، ففرحت قلوب المسلمين بسببه، وكان يقوى بتغافل السلطان والأتراك ومداهنتهم في أمره، فمات لعنه الله.

ومن فضائحهم: أن الشرائع لها بواطن غير الذي يعرفه العلماء، فالصلاة دعاء إلى الإمام، والصوم حفظ السر، والحج القصد إلى الإمام، وغسل الجنابة يطهر القلب عن المعقول، إلى غير ذلك مما لا يحصى، فنقول:

القرآن عربي والعرب تفهم من هذا شرائع معقولة وما يقوله تركي أو مصري، والقرآن لم ينزل بلغة التركي والمصري، فلو خاطبهم بلغة لا يعرفونها كان عبثا وظلما، فقولك: تحكم محض لم؟ قلت: ذلك؟! وأيضا فصاحة العرب منذ خمسمائة سنة يسمعون عنها ولا يعرفون معانيها حتى جعلت من صف البقالين، فكيف عرفت يا زنديق ما اشتبه على العرب؟!

أقصر يحق لمثلك الإقصار أتريد تعييرا وأنت العار[1]

وأيضا أولئك صلوا وصاموا وتعبوا، فكانوا على الحق دون العالمين، يا

---

(١) البيت من بحر الكامل.

عجبا، عجائب، وأيضا بم عرفت هذا ضرورةً أم نظرًا؟! وأنت لا تقول بالمعقول يا كافرًا زنديقا أجبنًا، ولا جواب لك، ومن فضائحهم أن حشر الأجساد لا يكون، والجنة والنار لهما ظواهر وبواطن.

والجواب: العقل يدل على جواز ذلك، وأخبرنا الصادق ﷺ بوقوع ذلك فآمنا وصدقنا، فمن أنت يا فضولي يا خبيث يا زنديق؟! إن المسلمين تقلدوا قول النبي ﷺ مع ألف معجزة، ولا يقبلون قول رسولك الدهري أفلاطون اليوناني وجروين وسروين يقلدون. من خرافاتك، هذا بإرادة علم اللّه ومن قدر على إنشاء شيء لم يكن له ابتداء قدر على إعادته، والجنة والنار عرفنا حقيقتهما من قول اللّه سبحانه وقول رسوله المعصوم، وأقام ألف معجزة حتى قبلنا قوله، فأنت يا زنديق بأي دليل تقبل قوله؟![1].

ومن فضائحهم: يستحلون تحريف المصاحف والمساجد، وقتل الذراري والصبيان، فنقول: يا ملاعين، الأنبياء ما قتلوا الناس ابتداء، بل دعوهم إلى الحجة والبرهان، وأنتم تزعمون أنكم على ملة الأنبياء، وتفعلون أفعال المجانين، فإن كان لكم حجة فأظهروها، وإلا فالكلب خير منكم.

ومن فضائحهم: شتم الأنبياء، ولقب أحدهم نفسه رب العزة، ويزعمون أن شريعة الرسول - وحاش اللّه - أن تتغير منسوخة بمحمد بن إسماعيل، واللّه تعالى يقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «لا نبي بعدي»، وختم الشيء آخره، والكيس إذا ختم لا يخرج منه شيء، وقال النسابون: إن محمد بن إسماعيل مات ولا عقب له، فكم أحصى ولا أخير له؟! ولقد صنفت كتابا يا معشر الوزراء في الرد عليهم قريبا من خمسين طباقة كاغد، فلنقتصر ههنا، فلا كلام معهم إلا المشرفي الجام، وقد انقطع الكلام.

---

(١) أي: يا من قلد أفلاطون الكافر.

الباب السادس

في الرد على الطبائعيين

قال الطبائعيون (سقراط وأفلاطون) أئمة الكفر: **أصل العالم أربعة أشياء هن: طبائع العالم، الحرارة والبرودة وهما فاعلتان، والرطوبة واليبوسة وهما منفعلتان، فمن قائل: تركيب هذه الأشياء الأربعة من غير صانع، ومن قائل: هذه الطبائع فاعلات تدبر العالم بطبعها، قالوا: الطباع تتغالب في الأجسام، فربما تغلب الحرارة على البرودة ولا يعلم الطبيب قدر الغلبة فيموت الجسم لجهل الطبيب، ولولا تغالب الطباع لم يمت أحد، فالقواطع على هؤلاء الزنادقة أن تقول: أتقرون بالصانع وأن الصنع لا بد له من صانع أم تشكون فيه؟ فإن أقررتم بذلك فالعالم صنع فلابد له من صانع وذلك الصانع لابد أن يكون عالما قادرا مريدا ليتأتى منه الفعل، ومن جوّز أن يكون صنعا من غير صانع؛ فلنجوز أن يكون قصرا مشيدا وقلعة حصينة تظهر في برية من غير صانع، ولا شك في أن الآدميين يبنون من الأرض، والزرع ينبت من غير بذر؛ ومن جوّز هذا فلا يكون إنسانا، يكون أحمق مجنونا محتاجا من يأتيه بمارستان.**

دليل آخر: **ذو مقدار وأقطار فلا بد من مقدر قدّره ودبّره.**

دليل آخر: **أن الطبائع كانت متفرقة، فما الذي جمع بينها؟ فإن أجابوا إنها اجتمعت بنفسها لا بجامع فهذا محال لما بينا أن الصنع لابد له من صانع، فإن قالوا: جمعها جامع فقد نزلت الرحمة، ولا جامع إلا اللّه.**

دليل آخر: **أن اجتماع الطبائعيين ليس بأولى من الافتراق فلابد من مخصص، وأيضا فإن أحد هذه الطبائع إذا غلب على ضده يفنيه، ألا ترى النار تغلب الحطب فتفنيه؟ وأنت تقول: تجتمع الطبائع المتنافرة في شخص واحد مع تضادها.**

دليل آخر: الطبع إما أن يكون معدوما فيوجد أو موجودًا فيعدم، وكلاهما محال؛ لأن المعدوم محال أن يكون له طبع حتى يُوجِد شيئا؛ إذ لو كان له طبع لم يكن معدوما، ومحال أن يكون الطبع موجودا فيوجِد العالم بطبع في العالم؛ فكان يجب أن تكون الحوادث كلها على وفق الطبع من جميع الوجوه، فلما رأينا الإبريسم يحصل من الدود، والعسل من النحل، ومن الآدمي الذي يأكل الطيب العذرة المستقذرة؛ عرفنا أن الطبع باطل، فتتعجب العقلاء من إلقاء السماء في الأرض، وخروج الفواكه الطيبة وطيب رائحتها، وفي الربيع الذي يشتد الجو، وتبلغ الشمس كبد السماء ينزل البرد الصلب أشد من الجليد، وفي الشتاء ينزل الثلج مع برودة الهواء فيشتد، فسبحان رب العالمين، فإن قال: يُضم شيء إلى الطبع فيوجب تركيب الجو، قلنا: ذاك الانضمام ما يوجبه؟ إن قلت: موجبه الطبع الثاني يحتاج إلى ثالث وإلى رابع وإلى ما لا يتناهى[1].

الباب السابع

في الرد على المنجمين

قال بطليموس: الفلك بما فيه من السيارات قديمة أزلية، وهذه السيارات مدبرات للعالم كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥]، وهي زحل والمريخ والمشترى والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وهن موجبات للسعد والنحس، ثم اختلفوا في تأثيرها، فمن قائل: إنها تفعل بطبعها عند محدثات ومقارنات، ومن قائل: إنها أحياء عالمون قادرون بفعل الاختيار، وقيل: السيارات لا تفعل شيئا، لكنها دلالات على هذه الحوادث، واللّه هو المستبد بالخلق والاختراع، واختلف المسلمون في النجوم، فمن قائل: لا أحيل على النجوم شيئا،

---

(١) يعني: والتسلسل باطل بإجماع العقلاء فضلا عن المسلمين.

فليست بسبب ولا فاعل البتة، ومن قائل: يجوز أن يقال سير هذه الكواكب سبب، كالصيف أجرى اللّه السُّنَّة فيه بحرارة الهواء، وفي الشتاء ببرد الهواء، فلو أراد قلب الحر والبرد فلا الصيف موجبه ولا الشتاء، لكنها أسباب وأوقات وعبـــارات، واللّه هو المختص بالخلق والإيجاد[1].

والدليل عليهم أن نقول: هذا النجم هل هو حي عالم قادر أم لا؟ فإن قال: ليس بحي لكن يفعل الشيء بطبعه لا باختيار، قلنا: هذا محال لأن الجمـــاد لا يقـــع منـــه الفعل، ألا ترى الميت والجماد يستحيل وقوع الفعل منه، وأيضا فإنما يؤثر الطبـــع عند الاتصال لا عند الانفصال والبعد، كالنار تحرق القريب لا البعيد، فكـــذلك الـــنجم وجب أن لا يؤثر ولا يعمل شيئا عند البعد، وبزعمك أن زحل في السماء الـــسابعة، فكيف يعمل بطبعه بمن هو على وجه الأرض؟

دليل آخر: من ذا الذي أوجد الفلك والسيارات أبنفسها وجـــدت أم بـــصانع؟ فإن قلت بنفسها فمحال، وإن قلت: بصانع فذلك ما تقـــول بـــأن الـــنجم حـــادث، فيستدعي نجما آخر إلى ما لا يتناهى، فإن قيل: أنتم تثبتون صانعا، وتقولـــون لا نهاية له، وذلك لا يقتضي نفيا. الجواب: نحن نثبت صانعا للعالم على خلاف العالم حيا قادرا لا يشبه العالم، وأنت تثبت الحوادث بحادث مثله وهو محال، وإن قـــال: الفلك قديم بسياراته، فمحال؛ لأن السيارات تدور والفلك دوّار من حال إلى حـــال، والقديم كيف يتغير؟ لأن الصفة الطارئة حادثة، والقديم لا أول له، وكما أن ذاته لا

---

(١) وهذا أولى بالصواب وأقرب في الفهم والعقول والاعتقاد، والله خالق كل شـــيء، ولكنهـــا علامات، وبالنجم هم يهتدون، ولكن الاعتماد عليها والقول بها في تفصيل الأمور هو مـــن جنس قول النبي ﷺ: «من أتى كاهنا أو عرافا فقد كفر بما أنزل على محمد»، لكنهـــا دليـــل على إجمالي متفاوت من الأمور عرّفه الله من عرّفه، وجهله من جهله، كقولنا: مواليد برج كذا يدل على صفات عامة تجمع أصحاب هذا البرج، وهذا من إبداع خلق الله والنظام الـــذي أودعه في كونه، لكن التخريف والتأليف والافتراء والحشو في ذلك بغير علـــم هـــو جهـــل وبهتان وزور.

أول لها فصفاته كذلك.

دليل آخر: نرى جماعة في سفينة يغرقون مع اختلاف طبائعهم، فعلمت أن لا فعل للطالع، وإن قالوا السيارات أحياء، نقول: هذا رد للمشاهدة، فإن النجم هو مضيء لا علم له، وهو مسخر لا علم له بما يعقل من الحركة والسكون والسير، فأين الحياة والمعرفة؟.

جواب: إن قلت: النجم حي عالم فاعل باختياره، فقد ارتفع الخلاف؛ لأني أثبت الصانع الحي العالم القادر إلا أنك تسميه نجما، وإنما أسميه ربا وصانعا، وأما اللّه تعالى فموجد، ولم يرد التوقف بتسميته نجما، وأيضا فإن الصانع واحد وأنت تثبت سبعا فقد أشركت واللّه تعالى أعلم.

الباب الثامن

في الرد على اليهود - لعنهم اللّه

واليهود أشد الناس عداوة للمسلمين، وأبخل الناس، وأنتن الناس، وقيل: سبب نتنهم أنهم ولدوا من قوم أميتوا ثم أحيوا، قال اللّه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾[البقرة: ٢٤٣] وفي الخبر: «ما خلا يهودي بمسلمٍ إلا وهَمَّ بقتله»، وقد ادعوا بمعتقدهم أمرا فاسدا ولهم فيه شبهتان:

الأولى: أنهم لا يجيزون نسخ الشرائع، وهم عميان، فكيف يجوز أن يأمر بشيء ثم ينهى عنه؟ لأن هذا يوجب البداء[1]، واللّه لا يجوز عليه البداء؟ الجواب: أليس اللّه نهى أن نعتقد نبوة موسى قبل أن يجعله نبيا، ثم أمر أن نعتقد

---

(١) البداء: ظهور الرأي بعد أن لم يكن. التعريفات – للإمام الجرجاني – ص ٣٦.

نبوته ولم يوجب ذلك بداء، وأرسله بعد أن لم يكن رسولا ولم يكن بدأه، وكـذلك يأمر بشريعة ثم ينسخها ولا يكون بداء، وكذلك يخلق الحياة في الإنسان بعـد أن كان ميتا ثم يحييه ولا يكون بداء، وكذلك أمر آدم بتزويج الإخوة من الأخوات ثم نهاه ولم يكن بداء، وكذلك أباح العمل في السبت ثم حرمه في أيام موسى ولم يكن بداء، فكذلك اليوم، ولا جواب، لهم بل علم أن المصلحة في ذلك الزمان كذا واليوم كذا، كما إذا خرج الرجل إلى السوق يغلق الباب ثم يرجع إلى الدار ويفتحها.

الشبهة الثانية: قالوا: قال موسى - صلوات الله عليه -: «شريعتي علـيكم مؤبدة ما دامت السماوات والأرض، فمن دعاكم إلى نسخها فاقتلوه». الجواب: هل قال مؤبدة في كل وقت ما دمتم أحياء وموتى وأطفالا؟ قالوا: لا؛ لأن الدليل قام أن من لا عقل له[1] ولا حياة له[2] لا تكليف عليه، قلنا: قـد قـام الـدليل عقـلا أن المعجزة دليل على صدق المتحدي بالنبوة، فلما وجب صحة نبوة موسى وجبـت نبوة نبينا محمد ﷺ، ومعنى قوله: «دعاكم إلى تركها فاقتلوه» ممن لا يقيم الدليل على صدقه؛ لأن شريعة موسى تصديق الأنبياء لا تكذيبهم، وقولـه: «تمـسكوا بالسبت ما دامت السماوات والأرض» لم يصح، بل هو من وضع ابن الراونـدي، ولو صح لادعاه علماء اليهود في عهد النبي ﷺ.

قالوا: إنه مبعوث إلى العرب دون العجم، قلنا: قـال اللّـه تعـالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]، فتناول العرب والعجم، وكان نبيا صادقا، فقال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» فبطلت دعـواهم، والحمـد للّـه رب العالمين.

---

(١) يعني: الأطفال لعدم كمال عقولهم.
(٢) يعني: الموتى لانعدام الحياة الظاهرة فيهم.

الباب التاسع

في الرد على عبدة الأوثان وعبدة البقر والكواكب

من أصحابنا من قال: هؤلاء لا يناظرون مجانين، ولا كلام ولا جواب، ولا ضرب الرقاب، ثم نقول: يا معشر الحمير، أما تستحيون، تعبدون ما تنحتون، واللّه خلقكم وما تعملون، ما لكم عقل وحياء؟! كيف أطعتم الشيطان؟ هذا حجر، وذاك بقر، وذاك كواكب لا يضرون ولا ينفعون، ولا يفهمون، صم بكم عمى فهم لا يعقلون، ويلكم، لأي معنى تعبدون؟! فبأي حديث بعده يؤمنون؟! فإن إبليس يغركم وأنتم لا تشعرون، هذه الأصنام لا ترزقكم ولا تضركم ولا تحفظكم من النوائب، ما معنى عبادتها؟! أفكا آلهة دون اللّه تريدون؟! فما ظنكم برب العالمين؟! هذه البقر لم تكن في العالم ولم تكن معبودكم، ثم تخرج من جوف أمها وصارت معبودكم، والحجر الذي تنحتون كيف يصير إلها؟! والبقر كيف تكون آلهة؟! والكواكب جرم مضيء مسخر مُهَوَّر[1] كيف يصير إلها؟! فالجماد الذي لا روح فيه، ولا قدرة ولا إرادة، ولا خير ولا شر كيف يكون إلها؟! تاللّه إن إبليس يضحك بلحاهم، ولقد أغواهم وأرداهم، ولقد بلغني أنهم يعبدون حجرا، ثم يرون حجرا أحسن منه، فيرمون الأول ويستنجون به، ثم يأخذون الثاني، وهذا ضلال عظيم، وبلغني أن بني حنيفة كان لهم صنم عملوه من التمر والدقيق، وركبوا فيه الجواهر، فأصابهم مخمصة؛ فأكلوه، فهل رأيت قوما أكلوا إلههم فأصبحوا والعرب يضحكون بهم، وإن بعضهم كان يعبد صنما فوضعه ثم ذهب إلى أمر له، فإذا بثعلب جاء وبال عليه فأدركه التوفيق فكسره، وقال: «أنت لم تحفظ نفسك فكيف تحفظني»، وأنشد:

ورب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب[2]

---

(١) مهوَّر: أي مقدَّر، من قولك: هار الشيء: حزره؛ بمعنى قدَّره.

(٢) البيت من بحر الطويل.

فلعن اللّه العزى والمناة ومن يؤمن بهما إلى يوم القيامة، فلنا العزيز الجبار ولهم العزى والنار، قالوا: هي بنات اللّه، وشفعاؤنا إلـى اللّـه، مـا نعبـدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى. الجواب: قلنا لهم يا حمير، إن كانـت بنـات اللّـه فمـن أمهن؟! وكيف ولدن؟! وأي نسبة بين القديم والحجر؟! اللّه تعالى حي عالم، قادر مريد، سميع بصير، وهن أحجار لا تضر ولا تنفع، أسلموا كي تسلموا فإن ذلك برهان الدسائس، ويضيع العمر بكلب حي خير من حجر منحوت، فهلاً يتخذون الكلب إلهـا - لعنهم اللّه- أتى يؤفكون. فابشروا بالإسلام يا معشر المسلمين، واحمدوا اللّـه علـى سلامة الدين، فأهل الأوثان فداؤكم من النار يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون.

الباب العاشر

في الرد على إخوانهم المجوس

اعلم أنهم يقولون بإلهين اثنين: نور وظلمـة، ويـسمون النـور يـزدان، والظلمة الشيطان، وهو أهرمن، فالنور لا يكون منه إلا الخير، والشيطان لا يكون منه إلا الشر، فجميع ما يجري في العالم من الخير من فعال النور، وجميـع مـا يجري من الشر فهو فعل الظلمة وهو الشيطان، فنقول: يا معشر المجـوس مـن أحدث الشيطان؟ فإن قالوا أحدثه يزدان، قيل: فقد أحدث الشيطان الذي هو أعظـم الشرور، فما أنكرتم أن يحدث سائر الشرور، وإن قالوا لا يحدث، قيل: فما أنكرتم أن تكون الحوادث كلها لا محدث لها.

دليل آخر: إذا جاز قدم الباري وهو نور وضياء، فما أنكرتم قدم الشيطان الذي هو ظلمة، فكل علة أوجبوا بها حدوث الظلام أوجبنا عليهم بمثلها حدوث النور.

دليل آخر: من خلق الظلام؟ فإن قالوا: النور، قلنا: فقد علم أنه يفعل الشر أم لا؟ إن قالوا: لم يعلم، فهو جاهل، وإن قالوا: علم خلقه للشر يجوز أن يخلق الظالم والجائر والسباع والعقارب، وإن قالوا: حدث بنفسه، فيلـزمهم أن تحـدث جميـع

الحوادث بنفسها وذواتها، ولا يحتاج فعل إلى فاعل، وصنع إلى صانع، وهو محال، ثم نقول: رجل قتل رجلا ظلما ثم ندم، أليس القتل شرا؟ قالوا: بلى، قلنا: أليس الندم خيرا؟ قالوا: بلى، قلنا: فعندكم الذي يفعل الشر لا يفعل الخير، فكيف هذا؟.

دليل آخر: إن الظلام لا يخلو إما أن يكون موجودا حقيقة، أو لم يكن فإن كان وجوده وجودا حقيقيا فقد ساوى النور في الوجود، وبطل الامتياز من كل وجه، وكذلك ساواه في القدم والوحدة، ثم الوجود من حيث هو موجود خير لا محالة، فلم يكن الظلام شرا، فبطل مذهبهم، وإن لم يكن موجودا حقيقة فما ليس بموجود أو كيف يكون قديما؟ وكيف يساوي ضده؟ وكيف يحصل فيه امتزاج؟ فكل ما ذكره باطل لا أصل له.

الباب الحادي عشر

في الرد على البراهمة

وهم قوم في بلاد الهند منكرون إرسال الرسل، ويقولون: لا يجوز في العقل إرسال الأنبياء إلى الخلق، ومنهم من قال: كان آدم نبيا فقط، وقال: قوم إبراهيم - صلوات اللّه عليه - وقيل: من هذا سموا براهمة، ثم من العجب أنهم يعبدون الأوثان، ولا يأكلون اللحوم، وأبو العلاء المعرّي - لعنه اللّه كان منهم - فنقول: إن الدليل على جواز بعثة الرسل أن العقل يجوز ذلك، فصانع العالم يعلم من مصالح عباده، وما لهم في فعله من النفع، وفي تركه من الضرر ما لا يعلمه أحد، فيرسل الأنبياء فيرشدونهم إلى مصالحهم، فلا استحالة في ذلك، فمن قال: إنه مستحيل فهو كافر معاند، فإن المريض يحتاج إلى الطبيب، فمعرفة صلاحهم وفسادهم من قبل اللّه عز وجل بمنزلة المريض المحتاج إلى معرفة الطبيبَ ليرشده إلى المصالح.

دليل آخر: نعلم ضرورة أن الناس يتفاضلون في العلم والإدراك، ويدرك بعض الناس من العلوم ما لو بقي غيره طول الأعمار لم يبلغه، فمن ذا الذي ينكر

أن القديم يعلم من ذلك ما لا يُعَلَّم؟ مع كون معلوماته لا نهاية لها، فيحتاج إليه في معرفة المصالح من المفاسد، ونحن لا نشاهد اللّه عياناً، ولا نكلمه كفاحاً؛ فنحتاج إلى سفير يخبرنا عنه، فقد أرسل إلينا الرسل وأخبرنا بالشرائع، فإن الجاهل يحتاج إلى معلم، والعاقل يحتاج إلى منبه، فدل على أن إرسال الرسل غير مستحيل، ولا يهولنك قول الباطنية - لعنهم اللّه تعالى- إنا نقول: لا بد من نبي أو إمام معصوم، فلم يتعقلوا، فإنهم لا يعتقدون وجوب الصانع، فكيف الرسل؟! والرسل قد جاءت وأظهرت الحجج، والعلماء باقون - كثرهم اللّه تعالى - والكتاب والسنة وأحكام الشريعة كلها منظمة بحمد اللّه ومَنِّه، وهم يريدون بزعمهم ومقصودهم انسلاخ الناس من دين اللّه عز وجل، وفتح باب الإباحة. وإذا ثبت أن انبعاث الرسل جائز فلابد للرسول من علم ينبئ به من بين سائر الخلق، إذا كانت بينة النبي كبينة المتنبئ، والصورة كالصورة، والدعوى كالدعوى، والعدة بالعدة، والثمرة بالثمرة، وذلك العلم المعجز فلا يجوز أن يكون مما يقدر عليه البشر، ولا يقدر عليه بالتفرد إلا اللّه تعالى؛ إذ مقامه مقام الشهادة بالتصديق.

فإن قالوا: نحن نعرف ذلك بالعقل فلا حاجة إلى الرسل. الجواب: كَذَّبتم بالأحكام الشرعية من الحلال والحرام، والواجب والمحظور، والمندوب والمكروه، ولا يمكن معرفة إلا من جهة الرسل، فلمسكوا عن هذياتكم، ولا تقدرون على ذلك أبدا.

الباب الثاني عشر

في الرد على النصارى - لعنهم اللّه

فلم قلتم إن المسيح إله؟ فالملكانية قالت: إن اللّه عز وجل حل في بطن مريم، فحدث عيسى من حوله فهو ابن له، ومريم أمه زوجة إلههم، وقالت النسطورية - لعنهم اللّه -: شخصه محدث، وروحه قديم. وقالت اليعقوبية: ناسوت ولاهوت اجتمعا في شخص عيسى، قلنا: فقد كفرتم، فالإله كيف تجوز

عليه الولادة والشرف[١] والهرب والقتل؟! قالوا: التعجب مولده وكثرة آياته. قلنا: مولد آدم أعجب، لا أم ولا أب، وكذا الملائكة، فيجب أن يكون آدم والملائكة آلهة، فالروم والهند وفارس يسمون ملوكهم آلهة، وما يقوم به الحوادث أو ما يقوم بالحوادث فمحدث، فثبت بها أنه ليس بإله، ولم قلتم إن الباري جوهر؟ قالوا: لأنه ليس بعرض فهو جوهر، قلنا: الباري إما أن يكون عرضا أو قابلا للأعراض، فلا جواب، ثم نقول: إذا أثبتم أربعة أبا وابنا وحياة وقدرة، فلم لم يلزمكم أن تثبتوا أقنوما خامسا هو سمع، وسادسا هو بصر وإرادة وبقاء؟ ولا جواب له.

الباب الثالث عشر

في جوابات الروم

الأول: قالوا: عيسى أفضل من محمد، وقوم قالوا: هو إله. الجواب: من أحمق ممن يقول هو إله ثم إنه قتل وصلب؟! هل رأيت في عالم اللّه أحمق من النصارى؟! عيسى يقول: أنا عبد اللّه، وهم يقولون: كذبت أنت إله، وعليّ بن أبي طالب ﷺ يقول: «أبو بكر خير الناس بعد رسول اللّه ﷺ»، والروافض تقول: كذبت أنت خير الناس، ثم نقول: إذا كان عيسى إلها فلم كان يصلي ويصوم؟ فإن قالوا: ليعلم الناس ذلك، قلنا: أو ليس رأى الناس يصلون ويصومون؟ ثم نقول: إذا كان إلهكم المسيح وهو ابن مريم، فوجب أن يكون عمران أبو مريم جده، والجد قبل الولد، وزعمتم أن مريم امرأة يوسف النجار، فيجب أن يكون يوسف تزوّج أم إلهكم، ثم نقول: أليس زعمتم أنه كان ثلاثين سنةً على شريعة التوراة ودين اليهودية، فيدخل الكنيسة ويحرم السبت؟ فيجب أن يكون المسيح الإله يهوديا ثلاثين سنة، ثم نقول: هل كان ينام؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: النوم يزيل

---

(١) يعني: العلو والمجد.

التدبير وينقضه، فكيف يدبر العالم من هو نائم؟! وإن قالوا: لا ينام، قلنا: إذا جاز أن يقتل، فلم لا يجوز أن ينام؟ ثم نقول: هل كان في حال قتلهم له حيا؟ فإن قالوا: نعم، فما أقروا بقتله، وإن قالوا قتلوه من عند أنفسهم، قلنا: فقولوا صلبوه من عند أنفسهم ومريم ولدت من عند نفسها.

شبهة: كان يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وعن الغيب ينبئكم بما تأكلون وما تدخرون. الجواب: هذا لا يصح لأن البشر لا يقدر على إحياء الموتى ولا إبراء الأكمة، بل كل ذلك محض فعل اللّه تعالى لا يقدر البشر عليه، بل اللّه يفعل ذلك عند إدعاء عيسى النبوة تصديقا له، وقد أنزل على نبينا قرآنا يحيي به القلوب، وقد نسخ شريعته بشريعة محمد ﷺ، وهو مبشر بمحمد ﷺ، ثم السر فيه أنه كان مبعوثا في زمن الأطباء فاحتاج إلى معجزة يعجز أهل زمانه عن مثلها، ونبينا كان مبعوثا في زمن الفصاحة؛ فلهذا أيد بالقبول.

جواب: موسى جعل خشبا مصمتا ثعبانا ذا رؤوس، ولم يكن أفضل عندك من عيسى، ثم الفضل إنما يكون بتفضيل اللّه تعالى، يعني: أن ثوابه أكثر بكثرة منافعه وفوائده، ومحمد ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس والشرق والغرب، وعيسى مبعوث إلى طائفة، وأن محمدا نسخ شريعته والناسخ أدخل من المنسوخ[1]، مثاله: السلطان إذا قطع بلدة من غلام ثم بعد ذلك عزله وخص به غيره؛ يعلم أن الثاني عنده أفضل من الأول، ثم الأنبياء كانوا يأتون بالمعجزات الخوارق، فيلزم أن يكونوا لاهوتا وآلهة، ومن حمق النصارى أنهم يجوزون النسخ لعيسى دون محمد ﷺ، فلو قال قائل: لم جاز لعيسى أن ينسخ شريعة موسى، ولم يجز لمحمد ﷺ أن ينسخ شريعة عيسى؟ ولا يجدون له جوابا، ومحمد ﷺ أفضل لأن شريعته باقية إلى يوم القيامة، وشريعة عيسى صلوات اللّه عليه منسوخة؛ لأن عيسى يكون في آخر الزمان على مذهب محمد ﷺ، ويموت على ملته، وأخبرنا المعصوم

---

(١) أي: أدخل في نفس السامع وأدعى للقبول عنده لبقائه وزوال حكم المنسوخ.

أن: «آدم ومن دونه تحت لوائي» وهذه الأمة أعلم من سائر الأمم؛ ولهذا قيل في وصف الأمة «علماء وحكماء».

شبهة أخرى: قالوا: عيسى حي، ومحمد ﷺ ميت، والحي أفضل من الميت. الجواب: حاشا لنبينا ﷺ أن يكون ميتا، بل هو حي في أحكام الآخرة، عالم بشأن الأمة، مترقب لمجيء القيامة. جواب آخر: إنما رفع عيسى لأنكم معشر الروم تقتلونه، ومحمد ﷺ خُيِّر بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة. جواب آخر: إنما رفع ليكون مبشرا لنبينا ﷺ. جواب آخر: الفضل لا يكون بالحياة والممات، فإن إبليس حي، ومريم ميتة، ولا يدل ذلك على أن إبليس -لعنه الله- خير منها، - وحاش لله - بل هي صديقة وهو لعين، وآدم عمر ألف سنة ونيفا، وعمر إبليس مائة ألف سنة ولا يكون إبليس أفضل منه، والتفضيل بكثرة الثواب والدرجة، ولا خلاف أن درجة محمد ﷺ أرفع من درجات النبيين.

إلزام آخر: لما وضعت مريم حملها انفصل اللاهوت أم الناسوت؟ فإن قالوا: انفصل منها اللاهوت، فنعوذ بالله ونبرأ من إله يخرج من فرج امرأة، وكفاهم هذه فضيحة أن إلههم يخرج من فرج، وإن قالوا: انفصل منها ناسوت ثم اتصل بها اللاهوت؛ فالتغير والحدوث والانفصال والاتصال من علامات الحوادث، والآن هذه مناقضة عظيمة، قالوا: إنه قديم، ثم يقولون: إن اليهود قتلوه وصلبوه.

شبهة أخرى: قالوا: سماه الله تعالى في الإنجيل ولدا، قال: يا عيسى، أنت ابني وأنا ولدتك، وقال عيسى: أنا ذاهب إلى أبي، فنحن ندعوه ابن الله على وجه التشريف، كما يقولون: محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله. والجواب: روايتكم لا تصح، لأن كتابكم محرف، وكلامكم كذب، وإن صح ذلك فأنتم تدعونه في الإنجيل أنت ابني، أو أنا ولدتك أي ربيتك، ولهذا قيل: أختمُوا العربية فإن النصارى كفرت بنقطة واحدة، ويجوز أن يقال: محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل

اللّه، ولا يجوز أن يقال عيسى ابن اللّه لدقيقة أن المحبة والـصداقة لا توجـد[1] المجانسة، فلا يصح أن يقال: هذا الفرس ابني، ولا مجانسة بين القديم والمحدث؛ فافهم.

الباب الرابع عشر

في الرد على الإباحية

ولهم شُبَهٌ، الأولى: قالت: قال اللّـه تعـالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[الأعراف: ٣٢] ، ذم قوما اجتنبوا أكل الطيبات، والطيبات في لغة العرب: الأكل والجماع، وقال اللّه تعـالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقـرة: ٢٩] فنعرف أن جميع الطيبات مخلوقة لعباده، فقد أعطانا اللّه تعـالى التحـرم علـى أنفسنا، فلا ندع كتاب ربنا بقول أعرابي بوال يروي خبرا لا ندري صحته، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا ﴾ [المائدة: ٩٣]، رفع الإثم عمن يتناول الطعام، والمباشرة في معناه، فدل أن كل مـن فعـل فعـلا تشتهيه نفسه ويدعو إليه طبعه يحل له. الجواب: هذه خطبـة الزندقـة وتحـرك سلسلة الإلحاد، فقوله ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] ، خطاب لآدم وبنيه وكانوا مؤمنين، فلا يتناولكم الخطاب لأنكم كفار، وهذا لأن اللّـه سـبحانه وتعالى أباح الطيبات للذين آمنوا، ولستم بمؤمنين، فلا نـصيب لكـم فيهـا لأن المؤمن من يصدق اللّه ورسوله، وأنتم لا تصدقونه، فإنه يقول: (الخمر رجـس)، وأنت تقول: هي طيبات الدنيا، ثم هو معـارض بقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [المائدة: ٩٠] ، وقال تعـالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] الآيـة، وقـال تعـالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ

---

(١) لعلها (توجب) بدل (توجد).

أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فمن استحل شريعة واحدة وخصلة واحدة يكفر، فما ظنك بنفسك وقد استحللت سبعين شريعة، أفلا تكون زنديقا؟! ثم يقول: هل يعتقد أن محمدا رسول اللّه، فإنه لا يعتقد حتى يقيم عليك دلائل النبوّة، وإن اعتقد أنه رسول، فقال: «إن اللّه تعالى حرّم الخمر وثمنها»، وقال: «من ترك الصلاة فقد كفر»، «ولا يخلون أحدكم بامرأة» فمن خالفه في هذه النصوص فقد كفر ثم يكفيك هذه أولاً.

قاعدة: اعلم أن التربية[1] بدل الإباحة، على أن بعض الناس يأخذ بعضهم ويقول أنت أختي، ويقول للمُرْد أنتم أصحابي نُقْلَةً ووسيلةً إلى النظر والشهوة، وهو بِذْر الإباحة؛ فإنها تدعو إلى النظر، والنظر يدعو إلى الخلوة، والخلوة تدعو إلى الوقاع وهو حرام.

الشبهة الثانية: قالوا ليس بحكيم من يصنع الطعام المشتهى ويضعه بين يدي الجائع، ويمنعه من التناول، أو الشعير بين يدي الحمار، والنفس بمنزلة الكلب. أترى من طرح الطعام إليه ثم يمنعه من ذلك؟ هل يكون حكيما؟ أو هل يطيعه الكلب وهو يقاوم نفسه؟ فكذا خلق النساء للرجال، فيجوز مباشرتهن، ومن الذي يملك نفسه عند الشهوة نحن لا نتمالك، والحكيم عرف ذلك منا، خلق اللذيذة الشهية والنفوس تشتاق إليها، ولا نتمالك لأنفسنا التدبير، وما الحكمة في الخلق ثم الخطور، وهذا كما قلتم: إن الأشياء قبل ورود الشرع حكمها الإباحة، ونحن نتضرر بتركها، واللّه لا يتضرر بفعلنا، فوجب أن يباح.

---

(١) يعني: أدعياء التصوف يخالفون منهج أولياء التصوف الحقيقيين، ويزعمون هذه التربية للنسوان والخلوة بهن، وإنما تجوز التربية لهن بمحضر الجمع الصالح من المسلمين أو منهن مع الشيخ الورع الصالح الموافق لظواهر الشريعة كما عليه أولياء الله تعالى اليوم، وفيما سلف، حيث كان سيدنا أبو بكر يقول للصحابة: قوموا بنا نزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

الجواب: عن صبوح يرفعون أن هذا سؤال وخطبة الزندقـة، ويلـزمكم أن يكون الكفر مباحا، فإن الباري لا يتضرر بذلك، ثم نقول: هو حكـيم طـرح إلـى البهيمة الشعير المنقى دون المغشوش، وأمسك عن الكلب الطعام المسموم لـئلا يقتله رحمةً وشفقةً، كالطبيب المشفق يحمي المريض عن الشهوات لئلا تقتلـه، وكذلك أباح لك السكر والعسل، وحرّم عليك الخمر؛ لئلا يزيل عقلك فيجعلك بمنزلة الحمار، وأباح لك التصرف في ملكك دون ملك غيرك، وأباح لك أربعـة مهـائر، وقال: «لا تطمع في زوجة جارك فإنه يقبح أن تأكل خبزه وتلطخ فراشه»، يجتمع عشرة على امرأة فيكون ولد، فكل واحد ينازعه، هذا يقول لفلان، وهـذا يقـول لفلان، فيضيع الولد، ويختلط النسب، فلا يعرف ابنه من ابن غيره، وتبقى المرأة بلا مهر ولا نفقة، أجيبوني يا حمير أيها أحسن؟ قال لنا حكيم: هـذا داء وسـم، وهذا دواء وترياق، إن تناولت السم يقتلك، وإن تناولت هذا يسمنك، فأيهما خير؟.

الشبهة الثالثة: العبد لابد أن يكون فقيرا مفلسا لتحقق عبوديتـه؛ لأن اللّـه تعالى وصف العبيد بكونهم فقراء اللّه تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، والطاعات دعاوى وشرك، فالعبد لا[1] ينبغي أن يكون له شيء ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[محمد: ٣٨] ، فلا يجوز أن يكون غنيا بالـصلاة والزكاة. والجواب: يلزمكم أن تتبرأوا عن الإيمان ومعرفة اللّه تعالى، فـإن مـن عرف اللّه تعالى فهو غني باللّه، بل هو أغنى الأغنياء. أجيبوا يـا مخاذيـل، ولا جواب لهم أبدا. ثم نقول: هذا خلاف العقل والشرع والعرف؛ فإن العقلاء يتقربون إلى اللّه بالطاعات، وأنتم تقولون: الطاعة حجاب، والعقلاء يغارون على العيـال، وأنتم تجلسونهم مع الأجانب، والعقلاء يحترزون عن العيـب والعـار، وأنـتم لا تتحاشون، والعاقل إذا رأى أهله مع أجنبي يضربها، وأنتم تقولون يا زوجي قـد

---

(١) لفظة (لا) ساقطة من المطبوع القديم.

وقفتك على إخواني؛ فأنتم مجانين، وقد رددتم الأنبياء والكتاب والسنة، ونفوسكم بمنزلة الكلاب، إذ لا يعتقدون الشريعة. قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]. قلنا: شيء يملكه، والعباد والبلاد للّه، وكيف نتصرف في ملكه بغير إذنه؟ واللّه يقول: لا تدفع إليه شيئا فإن أعطيته عبدك وأهلك وأنت تخالف ربك فأنت كافر. إن قيل فمن المباحي[1]. قلنا: من استحل شرب الخمر وترك الصلاة والخلوة مع النساء الأجانب - ونعوذ باللّه من ذلك - فهو مباحي يجب قتله، فإن قيل: لا أحد يقول بأن الخمر حلال، والخلوة بهن جائزة فكيف نعرفهم؟ الجواب: قلنا نعرفهم بلحن القول كما نعرف المنافقين، ويتكرر منهم ذلك.

(١) هكذا في المطبوع القديم (المباحي)، ولعل نسبته إلى اسم المفعول (مباح) للتحقير والاستهزاء بهم وذمهم على كونهم جعلوا أهليهم وأنفسهم مباحة للغير.